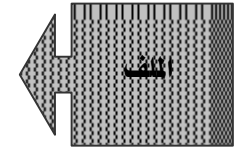


أ. كهلان بن نبهان الخروصي

المستشار الشرعي بمكتب الافتاء بسلطنة عمان



## الصحة الإسلامية والعلم الشرعي؛ ضرورة وتلازم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد فهذه ورقة عمل مختصرة أضعها بين يدي هذا المؤتمر الدولي راجيا الله تعالى قبولاً، وعسى أن أحظى بمنّه وتوفيقه.

و موضوع الورقة هو افتقار الصحة الإسلامية إلى العلم الشرعي، بينت فيه سبب هذا الافتقار وكشفت فيه عن الباعث الذي ينبغي أن يوجه الصحة الإسلامية صوب أساس علمي شرعي أصيل، ثم تحدثت عن أثر هذا التوجه حين تأخذ به هذه الأمة الإسلامية، وهذه الآثار في الحقيقة هي في الوقت ذاته تشخيص لمظاهر سلبية ظهرت - ولا زالت تتنامى - في مسيرة الصحة الإسلامية، إلا أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أنني أتيت على كل ما يكتنف الصحة في علاقتها بالعلم الشرعي؛ لأنني لم أشأ أن أكرر ما هو معروف من قضايا وتحليلات ولا أن أسرد أدلة حول ما هو متفق عليه.

ولا ريب أننا مهما وصفنا وحللنا، فإنه لا يمكن أن نحقق ما نصبو إليه إلا بالعمل الجاد الدؤوب، المبني على دراسة وتخطيط، وعلى تعاون وتكامل في الجهود المباركة من رواد الإصلاح ومن أهل الرأي والنفوذ السياسي. عسى الله أن يعين ويوفق الجميع إلى ما يبلغ أفضل الغايات، وما يحقق لهذه الأمة العزة والكرامة والنصر والرقى، وما ذلك على الله بعزيز.

### مقدمة:

لا ريب أن الصحة الإسلامية أصبحت ظاهرة لا تحتاج إلى برهان، ومظاهر هذه الصحة تبدو في سلوك أبناء هذه الأمة - رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً - طرق الصلاح والهدى، وفي الحفاظ على شعائر هذا الدين، والغيرة على حرمانه ومقدساته، وهذا من فضل الله تعالى على عباده، ففي بزوغ شمس الإسلام الخير للعالم والإنسانية، والحياة الطيبة للناس كافة، ولكن الذي يشهده العالم اليوم، وما تمر به الأمة الإسلامية - أو لعل الأصوب أن نقول: ما يمر بالأمة الإسلامية لأن الفاعل في الأغلب غيرها وهي جامدة تمر عليها الأحداث - من فتن وتغيرات، وما يشهده البشر من نظريات وأفكار، مع الثورة الهائلة في وسائل الاتصال المعاصرة، جعل أمر إعادة توجيه الصحة الإسلامية ضرورة لا ينبغي الاختلاف عليها، بل لا بد من المبادرة الجادة وإلا فأت الوقت وتقاذفت السفينة أمواج من الشبهات والضلالات عاتية، وحينها سنلوم أنفسنا ولات ساعة مندم.

### لماذا تشتد الحاجة إلى ركيزة علمية شرعية في مسيرة الصحة الإسلامية؟

وهنا أود أن أركز بكل صراحة ووضوح على ضرورة توجيه الصحة الإسلامية صوب العلوم والمعارف الشرعية الأصيلة، حينما نريد لها الاستمرار والفاعلية، وحينما نريد لأمتنا مستقبل عزة ونصر وكرامة. فقد أخذت شباب الإسلام عوامل أبعدهم عن

والأخبار، ومنها في موضع بيان الحكمة من التشريع ومنها عند إقامة الحجة وردها إلى آخر المناسبات والسياقات المعروفة في الاستخدام القرآني.

ولست هنا بصدد عرض الأدلة الشرعية الواردة في حكم العلم الشرعي وفضله، فهذا أمر متفق عليه، ولكني أود أن أعتد على هذه المسلمة في التأكيد على أن أي توجيه للصحة الإسلامية لمزيد من التكوين العلمي والمعرفي الشرعي لا بد أن يكون أساسه أن ديننا يأمرنا بذلك. فالإسلام دعوة للعلم والمعرفة، وأولى العلوم وأشرفها العلم بالله عز وجل وبشرعه الشريف، ولهذا كان شباب الصحة في واقعنا المعاصر أحوج ما يكونون إلى التزود بالعلوم الشرعية الأصيلة، وبتكوين ثقافة إسلامية متينة، امتثالاً لأمر الله تعالى أولاً وآخراً، لا ردة فعل للأحداث العالمية ولا لأن الواقع يفرض علينا ذلك بما جره الجهل على هذه الأمة وعلى المسلمين من قطع مظلمة من الفتن، وما أحدثه هذا الجهل من تشويه للإسلام والمسلمين، وما جرّه من الطيش والتهور لدى طائفة من أبناء هذه الأمة، ليس شيء من هذه الأسباب - مع أهميتها ووجاهتها - ينبغي أن يكون دافعنا إلى هذه الدعوة، لما تقدم من الأسباب، ولأنها - أي هذه الأسباب - في حقيقتها تذوب عندما يكون الباعث العبادة والامتثال ابتداءً، وهذا يجعل من هذه الدعوة مبدأ مقررًا مداوماً عليه، لا تغير حقيقته عوادي الزمان، ولا تخمد جذوته المصائب والأحداث التي تناوش أمتنا، ولا يخضع لردود أفعال آنية تنطفئ ولما تتقد. ويوم أن يأخذ بزمام الصحة الإسلامية مربون واعون بهذه الحقائق، منطلقون من هذا الأساس التعبدية، مدركون أن الغاية رضا الله تعالى والتبصر بأحكام شرعه والعمل بها في كل مناحي الحياة؛ فإن الصحة الإسلامية سوف تجني ثماراً يانعة، وإن طالت فترات الجذب، وستنزل على الأمة رحمت من الله وبركات بإذن الله تعالى القادر على كل شيء، ولا أريد أن أكرر ما هو معلوم من الآثار التي تنتج عن سلوك هذا المنهج في توجيه الصحة الإسلامية، وإنما أريد أن أنبه على جملة من هذه الآثار التي تحتاج الأمة إليها فعلاً في عصورها الحاضرة، علها تتلافى ما وقعت فيه من أخطاء، وتتدارك شبابها قبل أن يفلت الزمام.

التزود بالزاد العلمي الشرعي الكافي لتحصينهم ضد أهواء أنفسهم أولاً وغوايات واقعهم ثانياً، ويمكن أن تجنح بهم بعيداً عن حقيقة رسالتهم في هذه الحياة، وعن التصور الصحيح لمرآة دينهم وهداياتهم، هذه العوامل تتعدد في كمها وتتفق في أثرها، وفي مقدمتها - لا شك - الأوضاع السياسية، والظروف الاجتماعية، والنظريات (أو النظريات) الفكرية والمذهبية،... الخ مما هو معروف - ولو إجمالاً - من عوامل وأسباب.

وكان يمكن لهذه العوامل أن تكون سبباً كافياً يدفع بالمصلحين والمربين والدعاة والغيورين على هذا الدين إلى الإلحاح والمحرص على تأصيل قاعدة علمية شرعية، وغرس معارف العلوم الإسلامية لدى أبناء هذه الأمة الإسلامية، ولكنني أحسب أننا عندما نحاول تجديداً وتقويماً في مسيرة الصحة الإسلامية؛ فلا بد أن تكون منطلقاتنا سليمة موافقة لمقاصد الشرع الحنيف، ولهذا فمنطلق هذا التجديد وذلكم التقويم لا ينبغي أن يكون الظروف المعاصرة والأوضاع المحدقة بهويتنا وثقافتنا، لأن هذه متغيرة متقلبة شأن كل صروف الدهر وأحوال الزمان، ولأن ما نفعله ساعتئذ لن يعدوا أن يكون ردة فعل تتلاعب بها العواطف لا العقل، ويتعد عن التخطيط السليم الصادر عن تصورنا الإسلامي الراشد، وقد ينساق أيضاً وراء العوامل المؤثرة - سياسية كانت أو اجتماعية أو نفسية أو فكرية - فيسلك مسالكها ويتبع أساليبها التي لا تراعي الوسائل قدر مراعاتها للمقاصد؛ وعلى هذا كان لا بد أن يكون منطلقنا في هذه الدعوة إلى ربط شباب الصحة الإسلامية بهويتهم الثقافية وبالعلوم والمعارف الشرعية في هذه المسيرة "التجديدية التصحيحية" نابعاً من عقيدتنا وتصورنا أي من ديننا ذاته، فالإسلام يأمرنا بالعلم، والله عز وجل جعل للعلماء منزلة رفيعة، والقرآن الكريم يتحدث عن العقل والعلم والنظر والتدبر والتفكير في سياقات متعددة ومناسبات كثيرة، منها ما يأتي في سياق الأمر والنهي، ومنها في معرض الوصف بالمدح والثناء ومنها في مقام النعي والإنكار (على أقوام آثروا أزداد تلكم المعاني)، ومنها في مقام القصص

### أثر العلم الشرعي على مسيرة الصحة الإسلامية:

توحيد الله تعالى وعبادته على بصيرة وبينة: وهذا مما لا خلاف حوله، ولكن الذي لا بد لنا من التركيز عليه والتنبيه إليه؛ أن هذه الأمة قد أتيت من تفسيرات وتأويلات لا يقبلها الراسخون في العلم، ولا تقرها قواعد الشرع والعلم، سواء كانت هذه التأويلات في التصور أو في العمل أو في المنهج. وليس الخطر في صدور مثل هذه التأويلات الضالة بأقل من خطر قبولها والترويج لها لدى شريحة واسعة من شباب الصحة الإسلامية، مما يؤكد الحاجة الماسة إلى قاعدة علمية شرعية صحيحة لدى هؤلاء الشباب. ليس هذا وحسب، بل سيجعل من وجهة هذه الصحة وجهة شرعية سليمة تنقاد لأمر الله وتسعى لنيل رضاه وتجنب سخطه، وتقدم مرضاته تعالى على مصالحها الشخصية ومطامعها الدنيوية. فلا تقصد بعد بتدنيها منافع مادية، أو غايات رخيصة في ميزان الشرع الحنيف، ولا تساوم في مبادئها وأصولها كما لا تأخذها في الله لومة لائم. هذا كله لا يتأتى دون التزود من معين العلوم الشرعية والنهل من ينبوع المعارف الإسلامية الأصيلة بدافع إيماني خالص.

### اتباع منهج التعقل والتدبر والتفكير في التعامل والتفسير:

دعوة القرآن الكريم إلى التفكير والنظر والتدبر في الأنفس والآيات المبثوثة في الكون، وإلى الاعتبار والتذكر والاتعاظ من قصص القرون الخالية والأمم الغابرة - وهي دعوة جلية واضحة في كتاب الله عز وجل - تحقق فوائد أخرى غير الحصيصة العلمية الإسلامية ومجموع المعارف الشرعية والإنسانية والكونية، لا تقل أهمية عنها، بل هي في الحقيقة السبيل الموصلة إليها، هذه الفوائد هي اكتساب هذا المنهج العقلي الفكري - المهتمدي بنور الشرع طبعاً - في فهم الحوادث وتفسير الظواهر والربط بين الأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج.

لقد عانت الأمة طويلاً من تحكيم العواطف، وعانت أكثر من تصرفات فات

أصحابها أن يزنوها بموازين الشرع الداعي إلى أعمال العقل والتدبر في الوسائل والمقاصد، والهادف إلى عموم المصلحة للفرد والمجتمع والأمة، وأصاب الصحة الإسلامية من هذا ما أصابها، ولا ضير علينا أن نعتزف بهذا إذ غايتنا الإصلاح بإذن الله تعالى. ولا يخفى أن من أبلغ الآثار التي نشأت عن تجنب المنهج القرآني في تفسير الظواهر وتحليل الأحداث - أياً كانت هذه الأحداث - هو العشوائية والتخبط وعدم الموضوعية، والبعد عن الإنصاف، حتى أن باعث الأفعال في الأمة صار الحماس والعاطفة لا المبدأ والثواب إلا عند القليلين من المصلحين والعلماء الربانيين - بارك الله في مساعيهم.

فلا الغضب أو السخط، ولا الرضا أو الفرح، ولا الرغبة في الثأر أو الانتقام، ولا الانتصار للنفس، ولا غيرها من الانفعالات العاطفية النفسية هي من منهج القرآن في الوصول إلى تفسير سليم وفي الإعداد لحركة فاعلة مؤثرة في صنع الأحداث وكتابة التاريخ، نعم، لا يمكن إنكار دور العواطف في إيقاد الهمم، وإلهاب مشاعر الخير، وبث روح الغيرة على حرمت الدين ومقدساته، ولكن حين الحاجة إلى الفعل فلا بد من "التفكير" و"التدبر" و"النظر" وإلا لما أمكن تطبيق الهدى القرآني الوارد في قول الحق جل وعلا ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾<sup>(۱)</sup>، وفي قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾<sup>(۲)</sup>.

من هذا يتبين أن غرس ثقافة شرعية أصيلة في نفس شباب هذه الأمة أمر لا محيص عنه إن نحن أردنا لهم القدرة على فقه واقعهم وإعداد العدة اللازمة للتعامل معه، لأن حادبهم حينها سيكون العقل المهتمدي بنور الوحي وليس العاطفة والهوى، وسيتمكنون عندئذ من رسم إطار فكري قويم لمشروع حضاري يمكن لهم أن يسهموا

به في إنقاذ البشرية الحائرة . أما حين تتغلب العواطف وتبنى حركة الصحة الإسلامية على دوافع نفسية فإن العاقبة ستكون إما إحباطا يأسر عليهم نفوسهم وعقولهم فيقعد بهم عن الدور المنوط بهم، وإما اندفاعا جائرا طائشا لا يلبث أن يشور حتى يغور، وينتشر عقد الأولويات ، ويتسنى أمر توجيه الصحة الإسلامية جهال أو متفهيقون، وسيتم التنازل عن مبادئ الدين وأساسه شيئا فشيئا ليتحول بعد ذلك مشروع الصحة الإسلامية الرامي إلى الإصلاح والأخلاق والإخلاص لله وحده ليتحول إلى برنامج سياسي أو اجتماعي أو أدبي أو غير ذلك مما لا اعتبار فيه إلا لغايات دنيوية عاجلة .

#### الوصول إلى خطاب إسلامي خالص لا مذهبي أو حزبي :

ليس من الحكمة للأمة الإسلامية في هذا الوقت بالذات أن يكون خطابها الإسلامي - لا الداخلي (مع الذات) ولا الخارجي (مع الآخر) - مصطبغا بصبغة مذهبية تعصبية، فمع تسليمنا أن التمذهب حقيقة واقعة، إلا أن روح التعصب للمذاهب لا ينبغي أن تغطي على الخطاب الإسلامي الدعوي الشامل لدى أبناء الصحة الإسلامية ولا عند عامة المسلمين، فمصالح الأمة الكبرى، وأركان الإيمان والثواب المتفق عليها كقيلة يجمع شتات هذه الأمة على كلمة سواء يمكن أن تخاطب بها غيرها، وقادرة بإذن الله تعالى على التقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة على الأخوة الإيمانية، ولهذا يجب أن يترك متعصبو المذهبية إثارة ما يؤجج نار الخلاف، أو يثير حفيظة أتباع المذاهب الأخرى، ومن باب أولى أن يترك هؤلاء ما يخدمون به أعداء هذه الأمة من أمر تكفير طوائف إسلامية أو تضليلهم وإلحاق أبشع الأوصاف بهم، أو لمزهم واتهامهم بالباطل، فعاقبة هذا لا شك معروفة لا حاجة لنا إلى الإطالة فيها، وإنما أنقل هنا مثلا مما أجاب به عالم إباضي عماني عالما إباضيا ليبييا في القرن الهجري الماضي، فقد أرسل الشيخ سليمان باشا الباروني خطابا وجهه إلى ثلثة من علماء الإسلام تضمن أسئلة طالما دارت في أذهان كثير من أبناء هذه الأمة، حيث قال في سؤاله : " هل توافقون على

أن من أقوى أسباب اختلاف المسلمين تعدد المذاهب وتباينه ؟ على فرض عدم الموافقة على ذلك فما هو الأمر الآخر الموجب للفرق ؟ على فرض الموافقة ؛ فهل يمكن توحيدها بالجمع بين أقوالها المتباينة وإلغاء التعدد في هذا الزمن الذي نحن فيه أحوج إلى الاتحاد؟ وعلى فرض عدم إمكان التوحيد فما الأمر القوي المنع منه في نظركم ؟ وهل لإزالته من وجه على فرض إمكان التوحيد فأيُّ طريق يُسهِّل الحصول على النتيجة المطلوبة ؟ وأي بلد يليق فيه إبراز هذا الأمر ؟ وفي كم سنة ينتج ؟ كم يلزم له من المال تقريبا؟ وكيف يكون ترتيب العمل فيه ؟ وعلى كل حال فما الحكم في الساعي في هذا الأمر شرعا وسياسة ؟ مصلح أم مفسد؟ .. " فأجابه الشيخ العلامة عبد الله بن حميد السالمي - رحمه الله - بما يلي:

" قد نظرنا في الجامعة الإسلامية فإذا كشف الغطاء عن حقيقة الواقع، فله ذلك الفكر المبدي لتلك الحقائق، نعم، نوافق أن منشأ التشييت اختلاف المذاهب وتشعب الآراء وهو السبب الأعظم في افتراق الأمة على حسب ما اقتضاه نظركم الواسع في بيان الجامعة الإسلامية، وللفرق أسباب أخرى منها التحاسد أو التباغض والتكالب على الحظوظ العاجلة، ومنها طلب الرياسة والاستبداد بالأمر، وهذا هو السبب الذي نشأ عنه افتراق الصحابة في أول الأمر في أيام علي ومعاوية [ يشير إلى ما كان من التمرد على الخليفة الشرعي ]، ثم نشأ عنه الاختلاف في المذاهب، وجمع الأمة على الفطرة الإسلامية بعد تشعب الخلاف ممكن عقلا مستحيل عادة، وإذا أراد الله أمرا كان، ( لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)، والساعي في الجمع مصلح لا محالة، وأقرب الطرق له أن يدعو الناس إلى ترك الألقاب المذهبية، ويحضهم على التسمي بالإسلام (فإن الدين عند الله الإسلام )، فإذا أجاب الناس إلى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبية ولو بعد حين، فيبقى المرء يلتمس الحق لنفسه ويكون الحق أولا عند آحاد من الرجال ثم يفشو شيئا فشيئا حتى يرجع إلى الفطرة وهي دعاية الإسلام التي بُعث بها محمد عليه الصلاة والسلام

وتضمحل البدع شيئاً فشيئاً؛ فيصير الناس إخواناً (و من ضل فإنما يضل على نفسه)، ولو أجاب الملوك والأمراء إلى ذلك لأسرع في الناس قبولهم، وكفيتهم مؤونة المغرم، وإن تعذر هذا من الملوك فالأمر عسر، والمغرم ثقيل، وأوفق البلاد لهذه الدعوة مهبط الوحي ومتردد الملائكة ومقصد الخاص العام: حرم الله الآمن، لأنه مرجع الكل، وليس لنا مذهب إلا الإسلام، فمن ثم تجدنا نقبل الحق ممن جاء به وإن كان بغياً، ونزد الباطل على من جاء به وإن كان حبيباً، ونعرف الرجال بالحق، فالكبير عندنا من وافقه والصغير من خالفه، ولم يشرع لنا ابن إباض مذهباً وإنما نُسبنا إليه لضرورة التمييز حين ذهب كل فريق إلى طريق، وأما الدين فهو عندنا لم يتغير والحمد لله".

والسؤال والجواب من الوضوح والصلة بما نحن بصدده - في هذه الوريقات - بحيث لا يحتاجان إلى شرح أو تعليق، ومحاولة الشرح والتعليق تحتاج إلى دراسة مستقلة وإلى تمثيل واستشهاد يطولان. ولكني أترك القارئ ليجول فيهما بفكره وينظر في وضوح الجواب وواقعية ما فيه من حلول ومقترحات.

### التمسك بالأخلاق والقيم الإسلامية :

إن ما يدعو إليه الإسلام من أخلاق ومعاملة بالحسنى لا يتأتى الالتزام به إلا بالعلم به أولاً، فلذا كان من ثمرات ربط الصحة الإسلامية بالعلوم الشرعية الرصينة بث روح الأخلاق والقيم في شباب الأمة، فالعقيدة تجعل من الأخلاق موضع ثواب وعقاب، والفقهاء يبين للنفس ما لها وما عليها فعلاً وتركاً، والسنة تضع معالم الأخلاق وتهدى إليها بالأمثلة الحية من سيرة الرسول (ص)، والتاريخ يحكي أمثلة أخرى من القدوة الصالحة، والأدب يهذب النفوس ويعلم الشجاعة والكرم والأخلاق.. الخ.

وبالمعاملة الحسنة - المتحصلة من التعلم والنهل من مصادر الأخلاق في الكتاب والسنة - يمكن للصحة الإسلامية أن تبلغ شأواً بعيداً، فتفتح مغاليق القلوب، وتقرب بين الناس، وتمهد الطريق لخطاب إسلامي عالمي، وما أحوج شباب المسلمين

اليوم إلى القيم المثلى والأخلاق الإسلامية الحميدة التي لا يبتغي بها غير وجه الله وحده ( ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً × إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً).

أسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير وأن يبارك في جهود المخلصين إنه على كل شيء قدير والحمد لله رب العالمين.

### الهوامش:

١ - النساء / ١٣٥.

٢ - المائدة / ٨.